الفصل السادس

المراهقة المنحرفة

(الشكل الرابع)

الصفات العامة للمراهقة :

ليست حالات هذا الشكل سوى الصورة المطرفة للشكل الثانى (المراهقة الانسحابية) فى بعض الأحيان ، والشكل الثالث (المراهقة العدوانية) فى أحيان أخرى . . فالواقع أن المراهقة فى كل من الشكلين الثانى والثالث هى مراهقة غير متكيفة أو متوافقة ، ولكن مدى الانحراف فيها لا يصل إلى الخطورة البادية فى حالات الشكل الرابع — حيث تقابلنا صور من الانحلال الخلقى التام أو من الانهيار النفسى الشامل ، وحيث تبدر من المراهقين تصرفات يروّع لها المجتمع ، ويتحدث الناس عنها فيدخلونها تارة فى عداد الجريمة وأخرى فى عداد المرض النفسى أو العقلى ويعتبرونها فى حالة ثالثة شكلا من أشكال سوء الخلق والفوضى والاستهتار . بيد أن الخط الفاصل بين الصحة والمرض أو بين التوافق واللاتوافق ليس فى الواقع إلا خيط دقيق . . وبعبارة أخرى فإن الصحة النفسية والتوافق أمران نسبيان ، والناس — والمراهقون من بينهم — « إنما

يتفاوتون فى حظهم من الصحة أو المرض وفى المـــدى الذى يبلغونه فى التكيف مع مجموعاتهم وبيئاتهم .

وتتألف حالات الشكل الرابع من المراهقين الذين بلغوا الذروة فى سوء التكيف وفى مجافاة سلوكهم لأساليب السلوك المتعارف عليها — وهو ما اصطلح على تسميته بالانحراف أو الجنوح أو السلوك المرضى . . أما أنواع الانحراف بينهم فقد اختلفت وتعددت ؛ فكان من بينها السرقة ، والإيغال فى الكذب ، والاعتداء المادى على الأب أو المدرسين ، والأفعال الانتقامية العنيفة ، والتهالك على اللذات ، والمغامرات الماجنة المستهترة ، وإدمان المخدرات . . وكان من بينها كذلك الشذوذ الجنسى ، والمبالغة فى إيذاء النفس (النزعات الماسوشية) ومحاولات الانتحار ! !

ولقد يكون حظ المراهقين فى البحث الحالى أسعد كثيراً من أقران لهم ، ممن تفيض أنهار الصحف بأخبارهم بين الحين والحين . . فمن المعلوم أن الانحراف الذى طبعت به مراهقة أصحاب الحالات فى الشكل الرابع لم يطل به الأمد ، وإنما تعدل سلوكهم بعد إذ استقامت ظروف حياتهم وتبدلت بيئاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية . ولهذا ما له من دلالة على أن انحرافهم السابق وتوتر مراهقتهم ، إنما تأثر أكثر ما تأثر بما قابلوا من المعوقات والمواقف الإحباطية ، وبقصور مجتمعاتهم عن الإشباع السليم لحاجات نموهم .

العوامل المؤثرة فى المراهقة :

إن العوامل المؤثرة فى سورة الانحراف هى أساساً نفس العوامل المنتجة للمراهقة غير المتكيفة فى الشكلين الثانى والثالث ، مع اشتداد فى درجة هذه العوامل ومع إضافة بعض العوامل الجديدة أحيانا .

ومن العوامل التى تحتاج إلى شىء من التخصيص ما يلى :

١ — مَرَّ بعض المراهقين بخبرة شاذة مريرة أو صدموا صدمة عاطفية عنيفة ، لوّنت تفكيرهم ووجداناتهم لبعض الوقت بلون قاتم متشائم . . . والأمثلة على ذلك متعددة من الحالات — من بينها أن مراهقا اعتدى اعتداء جنسياً على فتاة من قريباته وظل يعيش بعد ذلك فى صراع مقيم ودوامة فكرية لا تهدأ ، زاد منهما ضغط أبيه وأسرة الفتاة عليه لتزويجه منها . ثم صدم مرة أخرى بوفاة والدته — وكانت الشخص الوحيد الذى ساانده وعطف عليه — فشعر بأنه أصبح وحيداً بين أناس يناصبونه العداء وفقد ثقته بنفسه كما تزعزع إيمانه بالناس والدين والحياة ، فراودته الأفكار الانتحارية السوداء !! . . ومراهق آخر نالت ألسنة الناس من أحد أفراد أسرته ، فكان للابسات هذا الظرف آثارها البعيدة على سلوكه ؛ من ضيقه بمواجهة الناس وشعوره بالخزى بينهم ، ومن ثورته العنيفة وسخطه على أسرته ، ومن انحراف إيمانه وشكه فى الدين والمثل والفضيلة ، إلى غير ذلك من الاتجاهات المرضية الخاطئة فى حياته ! . . وسنحت لمراهق ثالث فرصة

استولى فيها مع صديق له على مبلغ كبير من المال ، فكان ذلك المال مفسدة للصديقين ، ودفع بهما إلى مهاوى الرذيلة حتى بلغا أغوارها السحيقة ! !

٢ — وكان انعدام الرقابة الأسرية أو تخاذلها وضعفها ، من العوامل الأساسية فى انحراف عدد من المراهقين . ولم يكن ذلك دائماً بسبب الظروف القهرية التى لم تسمح للآباء بالإشراف على أبنائهم ، بل كان بعض الآباء يتعمد منح المراهق حرية التصرف المطلقة ، ولا يكلف نفسه مشقة الاطلاع على أحواله أو محاولة توجيهه . . وكان هذا النفر من الآباء متأثراً بما زعمه من اتجاهات «عصرية» لم تكن فى حقيقتها سوى اتجاهات انحلالية ، وإساءة لفهم معنى التربية الاستقلالية ، أو مغالاة فى تفسير الحرية تفسيراً يقرب بها من الفوضى والاستهتار !

فمن الغريب أن أحد الآباء — مثلا — كان يعرف عن مغامرات مستهترة لابنه مع صحبة (أرستقراطية) من أمثاله ، فكان يشجعه على ذلك ويضع عربته الفاخرة تحت تصرفه ! . . بل لقد شجع والدا هذا المراهق ابنهما على التمادى فيما كان عليه من غرور ، فكانا يصفانه بما ليس فيه ويزعمان أمام الناس أنه « فيلسوف » تارة و « فنان » تارة أخرى ، ويجدان له بذلك المبررات لتأخره الدراسى المشين !

٣ — وكما هو الحال فى الشكلين الثانى والثالث ، كانت القسوة الشديدة فى معاملة المراهق فى الأسرة وتجاهل رغباته وحاجات نموه ، من من بواعث تحلل علاقات المراهق فى الأسرة الذى بلغ ببعض المراهقين

حد الاستهتار الكامل بوالديهم وبالسلطة المدرسية وكافة أنواع القيود والضوابط الاجتماعية ... ومن أمثلة ذلك ما تسببت عنه صرامة أحد الآباء من غلظة المراهق مع أبيه وإرغامه له على إجابة مطالبه بل واعتدائه على أبيه بالقول والفعل !

كذلك كان التدليل الزائد من أسباب الانحراف فى بعض الحالات ، كما فى حالة مراهق تسابق على تدليله — فى الطفولة وبعدها — ثلاثة بيوت ؛ بيت والديه وبيت جديه وبيت ثالث لأحد أقربائه . . فنشأ لا يتحكم فى رغباته ولا يستطيع صبراً عليها ، وأسرف إسرافا شديداً فى العلاقة الجنسية دون تقدير للعواقب أو للمخاطر فى سبيل ذلك . . وأما المراهقون المدللون أمثاله ممن لم تسكن لهم فرصة العلاقة الجنسية الطبيعية ، فكانوا يسرفون فى النشاط الجنسى الذاتى أو يلجأون إلى علاقة منحرفة شاذة !

٤ — وتكاد الصحبة السيئة أن تكون عاملاً مشتركا فى جميع حالات الجنوح والانحراف الذى اتجه إلى الأساليب العدوانية . . ويجدر بالذكر أن استمساك المراهق بالصحبة السيئة اقترن غالباً بعيوب التربية فى المنزل والمدرسة وباشتطاط هذه التربية فى ناحية أو أخرى .

٥ — ولا بد من تمييز عامل النقص الجثمانى أو الضعف البدنى كعامل أساسى فى المراهقة المنحرفة ، فقد عانى معظم المراهقين فى الشكل الرابع من إحساسات النقص المترتبة على ضآلة جسومهم وتأخرهم عن الأنداد

فى قوتهم البدنية . . ولجأ بعضهم فى تعويض النقص إلى الإسراف فى العلاقة الجنسية كأسلوب لإثبات الرجولة والسيطرة وإلى الطرق العدوانية المختلفة . وقد اتجه البعض الآخر إلى العدوان المرتد إلى الذات ، أى إلى الانكماش وإيقاع الأذى بالنفس واستعذاب الألم والنزعات « الماسوشية » على اختلاف صورها !

٦ — وعانى أكثر المراهقين من التأخر الدراسى ، إما لظروف تسببت فيه أو لنقص فى قدراتهم العقلية . . وكان هذا التأخر من أسباب عدوانهم فى المدرسة وهربهم منها والتجائهم إلى الميادين الخارجية لإثبات الذات ومحاولة تعويض النقص .

ومما عزز هذا السلوك تركيز المدارس على التحصيل الدراسى والمناهج الأكاديمية الجوفاء ، وإهمالها لاعتبارات النمو المتكامل وللاهتمامات الأساسية للمراهقين ، وبخاصة إشباع حاجتهم إلى التقدير والاعتبار ، وإلى القيام بأعمال ذات مسئولية ، وإلى إنشاء علاقات اجتماعية ناجحة . . وكذلك تساؤل المراهقين فيما يختص بالمعارف الجنسية والكونية والمذهبية والاجتماعية ، وتساؤلهم المرتبط بأبواب الكسب والعمل أو مجالات الدراسة العالية والمهنية .

٧ — ولعبت الأحزاب السياسية (قبل الثورة) دوراً هاماً فى اتجاهات العنف والقسوة التى اتجه إليها بعض المراهقين . . فقد أدركت هذه الأحزاب حقيقة الفراغ النفسى فى حياة كثير من تلاميذ المدرسة الثانوية ،

فكونت لهم التنظيمات المختلفة وعهدت إليهم بالمسئوليات والأعمال التى يشعرون فيها بالتأثير والاعتبار الاجتماعى ، والتى تخدم فى الوقت نفسه الأهواء السياسية لهذه الأحزاب . . وشجعت الأحزاب على التظاهر والتخريب والعنف ، مستخدمة الرشوة والدس أحياناً ، ومستغلة فى أحيان أخرى قوة الشعور الدينى عند بعض المراهقين وبحثهم عن الأهداف التى يتعلقون بها والقدوة التى يترسمون خطاها . . . وكان لكل ذلك آثاره البعيدة فى حياة مراهقينا إلى عهد قريب ، وإن اختلفت هذه الآثار باختلاف العوامل الأخرى البانية أو الهادمة فى حياتهم !

٨ — وكان السوء الشديد للحالة الاقتصادية للأسرة من الأسباب التى دعت إلى ضيق بعض المراهقين بأنفسهم ، وتوارهم عن المجتمعات ، وتغلب اليأس وإحساسات الفشل والدونية فى حياتهم . . وقد اتجه البعض بسبب ضيق ذات اليد إلى دراسات لا تتفق مع طبيعة استعداداتهم العقلية ، مما كان له أثره فى سوء تكيفهم .

٩ — وإلى جانب العوامل السابقة ، تشير بعض الدلائل إلى تأثير العوامل العصبية الاستعدادية أو الاختلال فى التكوين الغددى فى انحراف بعض الحالات . . على أن العوامل الاستعدادية ليست بأى حال مسئولة عن جميع حالات الانحراف ، كما أنها لم تكن لتكفى — دون مؤازرة العوامل الأخرى — لإيجاد الانحراف أو السلوك المرضى .

أصدقاء ضد الحادث :

(نظراً لأن بعض الحالات تكشف تفاصيلها عن أصحابها ولأن خبراتها أعنف من أن يصرح بها فى كتاب ، فقد اكتفينا بالمثاليين التاليين ، وإن كانا أخف قسوة وأقل تمثيلا من الأمثلة الأخرى للشكل الرابع فى المراهقة . وحذفنا منهما — بالضرورة — بعضاً من التفاصيل كذلك . ونكرر أن الانحراف لم يدم بأشخاص هذا البحث ، الذين هم الآن من المواطنين الأسوياء النافعين) .

١ — اتجهت هذه المراهقة فى جانب كبير منها إلى الانحراف ، وذلك بتأثير عوامل عدة أهمها ضعف الرقابة الأسرية ، والصحبة السيئة ، والتشيع الحزبى فى المدرسة الثانوية ، ومال كثير وقع فى قبضة المراهق ورفيق له . وكانت النتيجة جنوح المراهق إلى العنف والفوضى واندفاعه فى المغامرات الماجنة وتحوله عن تدينه السابق وتكرر رسوبه فى الدراسة .

وتنتمى أسرة هذا المراهق فى الأصل إلى المدينة ، ولكنها عاشت ردحاً من الزمن فى القرية بحكم عمل الأب . . وكان المراهق حتى ختام المرحلة الابتدائية — أى حتى الخامسة عشرة من عمره — متديناً ، يحافظ على مواعيد الصلاة التى غالباً ما يؤديها بالمسجد ، ويحرص على الصيام ، ويخطب فى المدرسة فى المناسبات الدينية .

ثم التحق بالمدرسة الثانوية فأقام فى المدينة مع أخيه الأكبر . وكان

أخوه هذا يعامله معاملة فيها تهاون شديد ، فسرعان ما أفلت المراهق من كل سيطرة لأخيه على تصرفاته . .

واتصل المراهق فى أثناء فترة الدراسة الثانوية بأحد الأحزاب السياسية ، فاستهواه منه أنه سلحه (بالكرابيج) وغيرها لضرب التلاميذ المنتمين إلى الأحزاب الأخرى ، وكانت هذه الخبرة مبدأ لاتجاه العنف والاستهتار فى حياة المراهق !

وساعد انعدام التوجيه المناسب فى المدرسة وضعف رقابة الأخ الأكبر على انخراط المراهق فى صحبة سيئة من زملائه . . وكان له من هؤلاء صديق زين له الاشتراك معه فى سرقة مبلغ من المال يقارب الثلاثمائة من الجنيهات ، هو مجموع مدخر والد الصديق وجده لأداء فريضة الحج ! » فكان هذا المبلغ الضخم — الذى ادعى الصديقان أمام معارفهما أنهما عثرا عليه فى فجوة — وبالاً كبيراً عليهما . . . لقد أنفقاه كله — أو أضاعاه كله — فى مدى عام ، عاشا فيه عيشة البذخ والعبث واللهو ؛ فاشترى كل منهما ساعة غالية وساعة غير التى معه ، واشتريا حاكياً (جراموفون) وأشياء أخرى كانا فى غنى عنها ، وأقبلا على التدخين بغير حساب ، وسافرا أيضاً إلى القاهرة والاسكندرية فأمضيا بها أياماً عابثة . . وبلغ بهما الاستهتار أنهما أقاما (الليالى الحمراء) فى مسكن المراهق دون مبالاة بأخيه الأكبر الذى كان يضطر إلى مغادرة المنزل !! . وفى نهاية العام ، نفد الكنز الذى اغترف منه الصديقان دون حساب أو كاد ، فشرعا فى بيع أكثر الاشياء

التى سبق لها شراؤها ، كما اكتشف أمر السرقة وأجرى معهما تحقيق بشأنها ، وإن نجوا من العقوبة !

وقد ترتب على هذه الخبرة العنيفة فى حياة المراهق كثير من الآثار السيئة ؛ كان من بينها تكرار رسوبه فى المدرسة ، واستهانته بالقيم الأخلاقية والاجتماعية ، وخشونة معاملته لأفراد أسرته . . . وكانت هذه الظواهر ناقوس الخطر الذى نبّه الأب إلى انحراف ولده فجعله يسعى حتى انتقل بعمله إلى المدينة لإعادة الرقابة عليه . ويقول المراهق إن سلوكه اعتدل نسبياً بعد هذا الإشراف من والده عليه ، وإن ظلت به بقية من اهوجاج . . فقد لجأ أحياناً إلى السرقة (الخفيفة !) من المنزل ليواجه نفقات التدخين وغيرها ، وترك والده يعاقب أخاه الأصغر على إحدى هذه السرقات . كذلك لم ينقطع عن قضاء الأوقات الطويلة فى اللهو (والتهريج) مع ثلة الأصدقاء . وأصبح سريع الثورة إذا لفت والده نظره إلى العناية بدروسه أو نصحه بالابتعاد عن رفاق السوء ، بل لقد هدد مرة بالانتحار إثر تعنيف والده له وشرع فيه فعلا !!

٣ — وهذه حالة أخرى لمراهقة جانحة مشكلة ، يعتبر الوالد المسئول الأول عما أصابها من انحراف — فقد أدى ضغطه الشديد على المراهق وجهله بالوسائل المناسبة لمعاملته ، إلى اندلاع ثورته الحامية على أبيه ، وإلى اتخاذها صورة الاعتداء المادى على الأب والتحطيم والتخريب فى المنزل وأفعال العنف والانتقام عامة . وبالرغم من أن المراهق كان متفوقاً فى

دراسته فى مبدأ الأمر ، فقد أفسد الأب حياته الدراسية أيضاً بتصرف سيء ، كان من نتيجته تدهور المراهق دراسياً وشعوره الحاد بالنقص ، مما أثر تأثيراً سيئاً على اتجاهات المراهقة .

فقد كان هذا المراهق أصغر الأبناء لأبوين أميين جاهلين . وكان أبوه رقيق الحال ، ولكنه وضع فى اعتباره أن يشترى فى كل عام فداناً من الأرض ، فقتر تقتيراً شديداً على أبنائه وبيته !

وكان المراهق فى صباه ناجحاً بل متفوقاً فى دراسته بالمدرسة الأولية . ولما كان أحد أقربائه تلميذاً بالسنة الثانية الابتدائية ، فقد أراد له أبوه ألا يقل عن هذا القريب ، فعمل على إلحاقه بالسنة الثانية الابتدائية بعد المدرسة الأولية مباشرة ، وذلك بالرغم من انقضاء شهر على بدء العام الدراسى ! وترتب على هذا المسلك أن المراهق قابل صعوبة كبيرة فى مجاراة تلاميذ فصله وبخاصة فى اللغة الأجنبية ، فتدهورت نظرته إلى نفسه وشعر بالنقص بين الأقران . ولم يقتصر الأمر على هذا بل اشتد مدرسوه فى عقابه — بتحريض من أبيه — على تأخره فى التحصيل ، وغالى أبوه أيضاً فتوعده بأن يقذف به من السطح إذا رآه خارج غرفة المذاكرة ! . . فاضطرب المراهق لكل ذلك اضطراباً كبيراً ، ساءت معه صحته — بل انتابته حالة عصبية شاذة ، يقول فى وصفها إنه عانى نوبات البكاء الحاد كما أخذت بخناقه (الكوابيس) الليلية والأحلام المفزعة !

ولم يكن ممكناً أن يدوم الحال على هذا المنوال ، فتطور الأمر بالمراهق إلى الثورة العارمة على أبيه وإلى جفوة الخلق والفظاظة وعدم المبالاة . . . لقد أخذ يرفض أوامر الأب رفضاً صريحاً ، ثم تمادى فجعل يفرض على أبيه أوامره وطلباته . . وكان يطلب من أبيه النقود لشراء السجاير ويدخنها أمامه ويهدد بتحطيم الأثاث والأدوات المنزلية عند امتناع الأب .. وفى مرة طلب من أبيه شراء سترة جديدة فذكره الأب بالسترة التى اشتراها له منذ عام ، ولكن المراهق ثار عليه وهدده إن لم يحضر له قسراً كل ما يطلب وزاد على الطلب أشياء أخرى . وقد استاء الأب فهجم على ولده بعصاه ، ولكن المراهق جرى إلى الخارج فاشترى مطواة هدد بها أباه ، واضطر الأب إلى شراء السترة !.. وفى مرة أخرى مزق المراهق هذه السترة ومزق كتبه وحطم جهاز الراديو عقب صدام مع أبيه بسبب شراء أثاث جديد لغرفته . . . وهكذا سارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، حتى كتب المراهق لأبيه يخبره بأنه يريد الزواج وعدم إتمام الدراسة . وتردد أبوه فى مبدأ الأمر ثم انصاع لرغبته فخطب له إحدى الفتيات ، كما ترك المراهق التعليم فترة إلى الاشتغال بالأعمال الحرة . . ويقول إن حياته هدأت تماماً بعد ذلك حيث أصبح مستقلاً عن الأسرة من الناحية الاقتصادية ، وحيث بعد عن سلطة والده وسيطرته ، وتخفف أيضاً من شعوره بالنقص حيال زملاء الدراسة . ولما كان عمله يقتضى مخالطة الناس فقد هيأ له ذلك التخلص من خجله السابق منهم ، الذى يعزوه إلى منع

والده له من مجالسة الكبار . كذلك هيأ له الزواج الاستقرار الانفعالي والتخلص من إدمانه للجنسية الذاتية .

وعميل المراهقة إلى الاستقرار ، اتجه المراهق إلى إعادة تنظيم حياته ووضع أهداف لها . . فتقدم للشهادة التوجيهية من المنزل ، ثم مضى في سبيل دراسته العالية باذلاً في ذلك كل جهد ، حتى يعوض ما فوّته التعويق والضياع فيما سبق من الأيام .